إشكاليات اللزوميات
نحو قراءة جديدة لمشروع أبي العلاء الشعري

متابعة: د. هدى عبد الغني باز

عقد قطاع الدراسات العليا والبحوث بكلية الألسن . جامعة عين شمس بالتعاون مع قسم اللغة العربية بالكلية، يوم الأربعاء الموافق ١٨ أبريل ٢٠١٨، ندوة بعنوان "إشكاليات اللزوميات. نحو قراءة جديدة لمشروع أبي العلاء الشعري" حاضرت فيها أ. د. سوزان بينكني استيتكفيتش الأستاذة بقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة جورج تاون بواشنطن، وعضو المركز البحثي المصري الأمريكي.

بدأت الندوة بكلمة أ. د. ماجد الصعيدي أستاذ الأدب بقسم اللغة العربية بكلية الألسن الذي رحب بالحضور من العلماء والأساتذة والطلاب الحاضرين لهذا الملتقى العلمي، كما رحب بضيفي الندوة عَلَمي الاستشراق الأمريكي المعاصر، المستعربة أ.د. سوزان بينكني استيتكفيتش، وزوجها أ.د. ياروسلاف ستيتكيفيتش الأستاذ بجامعة شيكاغو، ومؤسس مدرسة شيكاغو للأدب العربي. ثم تحدث عن أبي العلاء المعري ذلك الشاعر الذي انشغل بلغز الإنسان، واتسمت أعماله الأدبية (الشعرية والنثرية) بالثراء، كما تحدث عن ديوان اللزوميات وقضاياه الشعرية، وعن إبداعه لشكل جديد للقصيدة العربية.

ثم أعطيت الكلمة لـ أ. د. محمد البديري نائب رئيس تحرير مجلة ألف ليدير الندوة، فرحب بالحضور وبضيفي الندوة، وقدم موجزًا عن أعمالهما المهتمة بالتراث الأدبي العربي، ثم أعطى الكلمة لـ د. سوزان لتلقي محاضرتها حول لزوميات أبي العلاء المعري.

توجهت د. سوزان في بداية كلمتها بالشكر لكلية الألسن على دعوتها، ثم أشارت إلى أن هذه المحاضرة إنما هى امتداد لمحاضرة سابقة ألقتها فى كلية التربية جامعة عين شمس، تحدثت فيها عن ديوان المعري «اللزوميات»، أو «لزوم مالا يلزم» أو «اللزوم» وهو ديوان شعر كبير مرتب على حروف الهجاء، وسمي بذلك لأن صاحبه التزم قبل الرَّوِيّ حرفًا إذا غُيِّر لم يكن مخلًا بالنظم، وقد قدم له المعري قائلًا: «وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف: الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثانية أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون، والثالثة أنه لُزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم». لم يضع المعري هذا الديوان قصدًا للبراعة اللفظية والمقدرة اللغوية فحسب، وانما قصد به إلى معان فلسفية أيضًا، وقد نظمه بعد عودته من بغداد وقد اكتملت شخصيته ثقافيًا وشعريًا وفلسفيًا. فكتاب «اللزوميات» يمثل حياة عقل أبى العلاء، ووجدانه وخلقه تمثيلًا صادقًا، وآراءه التى كان يلقى بها إلى طلاب العلم، فهو استجابة شعرية للحياة الفكرية والسياسية التي عاشها، وانعكاسًا لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية.

وقد اختلف فى نظمه للزوميات عن المراحل السابقة من حياته الشعرية والفكرية، شكلاً ومضمونًا؛ فمن حيث الشكل فقد ألزم نفسه بلزوم ما لا يلزم، ومن حيث المضمون فلم ينشئ قصائد فى المديح والنسيب والغزل والرثاء والهجاء وما إلى ذلك من أغراض الشعر المعروفة عند العرب منذ الجاهلية، بل عبر عن أحاسيسه ومشاعره وتأملاته وأفكاره تجاه القضايا الكونية والإنسانية والفلسفية، فضلاً عن انشغاله

بهواجسه وقلقه وحيرته، فاشتملت لزومياته على كثير من الجدل والسجال والسخرية في مسائل أدبية وفلسفية.

وضحت الباحثة مشروعها حول لزوميات أبي العلاء من نواحٍ عديدة؛ فمن ناحية الذوق النقدي والأدبي دعت الباحثة لتحليل شعر اللزوميات لاستخراج شخصية الشاعر من خلاله، خصوصًا بعد ظهور مدرسة موت المؤلف، فالشعر تعبير مخلص عن وجدان الشاعر، ومع مجيء الحداثة في القرن العشرين أصبحنا لا نهتم بحياة الشاعر العاطفية والوجدانية، ونعتقد أن نتاج الشاعر مدخلًا لحياته الداخلية، فما بعد الحداثة ليس جزءًا من مشروعها.

كما أنها ستحاول استخراج فلسفة أبي العلاء من اللزوميات بخاصة، فأبو العلاء شاعر الفلاسفة أو فيلسوف الشعراء، حيث زعم طه حسين أنه فيلسوف، لكنها ترى أن أبا العلاء شاعر وأديب لم تشغله الفلسفة إنما شغلته معانٍ شعرية معروفة أو مقالات فلسفية.

ومن ناحية الألفاظ والغرض الشعري المسيطر على اللزوميات، وضحت الباحثة أن أبرز الموضوعات المسيطرة عليها هي السخرية من الدنيا، وبيان موقف أبي العلاء الجاحد للمؤسسات الاجتماعية والحكومات، وكلها مواقف تعبر عن البيئة الأخلاقية التي خرجت منها اللزوميات. فالمعري في لزومياته لم يحذُ حذو الشعراء في تعبيرهم عن المعاني الكلاسكية كالغزل والفخر والهجاء وغيرها، إنما اقتصر (من المعاني الكلاسكية) على معاني الوعظ والحكمة، وتعد اللزوميات قصائد سلبية تحمل معاني تشاؤمية.

وأشارت إلى حديث المستشرق الإنجليزي نيكلسون في دراسة له عن اللزوميات، وتبويبها أبوابًا سجل فيها تأملات توضح بُعدها التفكيري، وتشير إلى أبرز أفكارها.

وناقشت الباحثة هل أنتج أبو العلاء من خلال هذا المشروع الشعري المبرمج المتكامل عملًا شعريًا ناجحًا مقنعًا من حيث المقاييس الجمالية. فقد قدم أبو العلاء مقاييس شعرية بديلة للجماليات المعروفة في القصيدة التقليدية. وقد قصد من خلال اللزوميات عرض مهارته الفائقة في فن القافية؛ ليتفوق بذلك على فحول الشعراء كامرئ القيس والمتنبي، ويتحدى الشعراء المنافسين المعاصرين واللاحقين.

كما ذكرت أن الهدف من مشروعها عرض معرفة أبي المعري الكاملة بالمعجم العربي عمومًا والمعجم الشعري خصوصًا. فعند قراءة "لزوم ما لا يلزم" لا نشعر بأي موسيقى عند الانتقال من قافية إلى أخرى، فنفتقد الشعور بجماليات البرنامج، كما لا نجد فيه أي استقصاء أو شمولية في اختيار المفردات المقفاة، بل العكس؛ فأبو العلاء يستخدم أحيانًا أبسط ما يكون من الكلمات والمفردات والقوافي، ويكررها في القصائد مع حركات مختلفة أو قوافٍ مختلفة.

وقد كان أبو العلاء على وعي بقصور مشروعه الجمالي، وضعف أغراض القصيدة، فيكون المتلقي في حاجة إلى انتقاء ما يستحسنه ويستجيده من قصائد ومقصوعات هذا الديوان ليدرسها أو يقرأها. فهي تقرر أن مشروع أبي العلاء بوصفه بنية جمالية أو شعرية قد فشل، وأن استمتاع المتلقين به يختلف من شخص لآخر.

شكر د. محمد البديري لها، ثم أعرب عن ميله إلى القول إن الفكرة العامة هي تفكيك معظم ما قيل عن شعر أبي العلاء واختزاله في الفلسفة والحكمة، واستخلاص حياته من شعره، بخلاف رأي الباحثة التي قامت بتحليل شعر أبي العلاء تحليلًا أسلوبيًا يفصل بين الشكل والمعنى، فهي ترى أن جماليات شعر أبي العلاء لم يُلتفت إليها، وتحاول بتحليلها سد هذا النقص. ثم فتح المجال لمداخلات الحاضرين التي بدأت بمداخلة لـ أ. صابر الموجي، الباحث بكلية الآداب جامعة عين شمس، ومساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام، التي سأل فيها عن عبارة "ألزم نفسه بما لا يلزم" فإلى أي مدى ألزم أبو العلاء نفسه بما لا يطيقه، وكيف خالف الشعراء الآخرين ولم يسر على نهجهم؟

أجابت الباحثة عليه بأن المنافسة بين الشعراء في مجال القصيدة كان تحديًا في الحياة السياسية والاجتماعية، وقد أوجد أبو العلاء لنفسه ولمنافسيه تحديًا جديدًا وهو الابتداع في القافية بلزوم ما لا يلزم.

كانت المداخلة التالية لـ أ. د. ماجدة حسب النبي أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية البنات جامعة عين شمس التي سألت عن مدى التطابق بين الشعر الإنجليزي الحر وما قدمه أبو العلاء في اللزوميات، وعن تعليقها على من يقول إن سبب قافية اللزوميات هو استقصاء المعجم الشعري، أجابت الباحثة أن الشعر دون قيود لا يكون شعرًا، وزيادة القيود تميت الخيال الشعري. ولا يمكن أن تُطبق على اللزوميات الأدوات التحليلية نفسها التي تستعمل لتحليل قصيدة النثر، فيجب أن تبنى أدوات جديدة. وهي ترى القول بأن سبب قافية اللزوميات هو استقصاء المعجم الشعري فكرة غير مقنعة؛ لأنه استخدم كلمات بسيطة في هذه القافية وقام بتكرارها.

وكانت مداخلة أ. د. نيفين كمال أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الألسن تأكيدًا لفكرة الباحثة حول رأيها المخالف لطه حسين في وصف أبي العلاء المعري بأنه فيلسوف، فهو شاعر لديه خواطر وتأملات فقط، لكنه ليس فيلسوفًا متصوفًا. وقد علقت الباحثة بأن اختلافها مع طه حسين يرجع إلى اختلافهما في تعريف مصطلح فيلسوف، ومصطلح صوفي؛ ففيلسوف مصطلح خاص بالمفكرين، وصوفي مصطلح خاص بالعقيدة، وقد كان أسلوب حياة المعري يقترب من الصوفية، لكنه لم يكن صوفيًا بالمعنى الحرفي للكلمة.

وتحدث أ. د. عاطف بهجات أستاذ الأدب بكلية الألسن في مداخلته عن أن عزلة المعري هي التي دفعته إلى لزوم ما لا يلزم، فكانت عنده لزومًا لما يلزم كي يثبت ذاته. فإن فقده لبصره جعله قوي السمع مما جعله يلجأ لحيلة عروضية تطيل زمن الحركة الموسيقية. وأكد ضرورة دراسة لزومياته في ضوء عزلته وفقده لبصره.

ورحبت أ. د. نجوى عمر رئيس قسم اللغة العربية في مداخلتها بالضيفين، وأثنت على المحاضرة الثرية، مؤكدة اتفاقها مع الباحثة في أن مشروع اللزوميات ليس فلسفيًا بالكلمة، إنما هي تعبير عن موقف الشاعر من الحياة، فهو مشروع نفسي للمعري، تحدى فيه نفسه والمجتمع، فقد شعر بتفوقه وتميزه من ناحية، وتجاهل المجتمع له من ناحية أخرى، فحاول إثبات موهبته الفذة وتميزه لنفسه وللمجتمع ليرضي أثرته ويثبت للآخر ذلك.

وأكد أ. د. ماجد الصعيدي أهمية هذه الدراسة المنهجية التي تضاف إلى دراسات الباحثين في تراث أبي العلاء الشعري، وقال إن أبا العلاء ينتمي إلى الحكمة الشرقية، فهو ابن الثقافة العربية التي تمتاز بألوان الحكمة التي تصاغ صياغة أدبية. وقد حاول في اللزوميات طرح صياغة أدبية لتجربة حكمية تلخص رؤية عربية لأربعة قرون سابقة، وذلك بغض النظر عن النظام الذي ولدته العزلة (نظام اللزوميات المبرمج) فهو شاعر لديه نزعة تشاؤمية، نمت لديه النزعة الفنية وقيدته شاعرًا ليصدر شكلًا فنيًا جديدًا للشعر. وديوان أبي العلاء ديوان ضخم يربو عن أحد عشر ألف بيت، لا يمكن احتواؤه والإحاطة به في كتاب واحد أو دراسة واحدة، إنما هو متجدد يدعو الدراسين للكشف عنه من جديد، ومازالت إشكاليات اللزوميات لم تصل لحل حتى الآن، فمازال عمل أبي العلاء قابلًا للدراسات من جديد.

وطالب الباحث بهاء حسين بكلية التربية بتفعيل زيارة الباحثة الأكاديمية لمصر في مجال الإشراف المشترك ومشروعات الأدب العربي، وتسجيل محاضراتها كتابيًا في إصدار مطبوع.

وفي ختام الجلسة تقدمت أ. د. سلوى رشاد وكيل الدراسات العليا بتقديم شهادة شكر وتقدير للباحثة، وسلمتها أ. د. نجوى عمر رئيس قسم اللغة العربية درع القسم، هي وأ.د. ياروسلاف ستيتكيفيتش، وجددت دعوتهما للحضور مرات عديدة.